

## تحليل النص القرآني

س : ماذا تفهم من مفردة (تحليل) ؟. وكيف يجري ؟. وما المراد بـ(النص) ؟. وما هي مستوياته ؟. ثم ما الغاية من تحليل النصوص عموماً ؟. والنص القرآني خصوصاً ؟ .  
( التحليل ) في اللغة يعني التفكيك ، وتحليل الشيء يعني تفكيكه إلى مكوناته التي تأسس منها .

أما ( النص ) فمجموعة من الألفاظ والجمل والتراكيب ؛ صيغت صياغة خاصة ( شعر - نثر ) لتؤدي فكرة معينة .  
ومهما يكن شكل النص أو نوعه فإنَّ الأسلوبية تنظر إليه - عند التحليل - من جانبين : أحدهما ؛ مادي ( لفظي ) ؛ يدرك باللفظ ؛ ويشتمل هذا الجانب على الأصوات التي تتشكل عن مجموعها ألفاظ النص في هيئة صوتٍ مفردٍ أو مقطعٍ أو وزنٍ أو تركيبٍ ؛ وتنتهي في العادة إلى ثلاثة مستويات ( صوتي ، وصرفي ، ونحوي ) .  
والجانب الآخر : عقلي ( معنوي ) ؛ يرصد الدلالة المتولدة عن هذه المستويات الثلاثة ، و التي تساهم في رسم فكرة النص سواء أكانت معجمية أو مجازية أو وظيفية .  
ولا يعني تقسيم النص على قسمين ( لفظي ومعنوي ) قطع الصلة بينهما ؛ فالنص اللغوي - كما أشرنا - يُبنى من مجموعة من العلاقات المتشابكة والمترابطة ( صوتياً ، وصرفيّاً ، ونحويّاً ، ودلاليّاً ) وهي في تفاعلٍ نشطٍ ومستمرٍ ؛ ولا يمكن الفصل بين أجزائها فصلاً تاماً إلا على سبيل التحليل والدراسة ؛ فمستويات اللغة يكمل بعضها بعضاً ، وإنَّ التناغم بأشكاله المختلفة بين هذه المستويات مطلب بلاغي بحدِّ ذاته ، ولا بدَّ لدراسة هذه المستويات من الربط بينها ابتداءً ، ثم معاينة أثرها على إحياءات النص ؛ قبل التدرج في دراستها على جهة التحليل ؛ رصداً لمساهمة كل مستوى منها في ارتسام فكرة النص وتشكيل دلالاته .

وبضم قسمي النص ( المادي والعقلي ) بعضهما إلى بعض يتضح جلياً أنَّ النص اللغوي يرجع إجمالاً إلى أربعة مستويات ؛ هي : ( المستوى الصوتي ، والمستوى الصرفي ، والمستوى النحوي ، والمستوى الدلالي ) .

## الغاية من تحليل النصوص ( نصوص اللغة عموماً ؛ والنص القرآني خصوصاً )

في العادة تكون الغاية من تحليل النصوص تقييمها وفقاً للثلاثية النقدية الشهيرة ( : ماذا أراد المنشئ أن يقول ؟ . : كيف قال ذلك ؟ . : هل وفق أم لا ؟ ) . إبرازاً لمحاسن النصوص ومساوئها . غير أن النص القرآني نص معجز يسمو على ما سواه من نصوص اللغة ، وليس من اللائق عقلاً ولا شرعاً إخضاع آيه للسؤال الأخير ( : هل وفق القرآن أم لا ؟ ) ، لكن ذا لا يعني استحالة إخضاع النص القرآني للتحليل البتة ؛ ولا سيما إذا أسقطنا الجزء الأخير من معادلة التحليل ( : وفق أم لا ؟ ) ؛ بل إن تحليل النص القرآني يعد ضرورة ملحة في الوقت الذي تتنامي فيه دعوات التشكيك في حقيقة إعجازه من أعداء الملة ، فالتحليل يعد الأداة المثلى لإثبات وجوه الإعجاز اللغوي فيه ؛ ما يعني أن الحديث عن الإعجاز اللغوي القرآني في درسنا هذا يأتي في سياق الإجابة عن السؤالين الأولين فحسب ( : ماذا أراد القرآن أن يخبرنا ؟ . : وكيف قال ذلك ؟ ) .

## كيف يجري تحليل النصوص ( ما هي أدواته ؟ )

يتحتم علينا قبل الشروع في تحليل أي نص لغوي العمل على تقريبه من القارئ كخطوة مبدئية ، ولا سيما عند تشابه النصوص وتشاكلها ؛ وما أكثر وقوعه في القرآن الكريم ؛ ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا ﴾ (الزمر ٢٣) ، فربما خرج الكلام مخرج المدح وهو في معرض الذم ، كما قد يقع العكس؛ وحينئذ لا يُهتدى إلى مراد النص ما لم يُهتدى إلى مناسبتة ، فنحو خطاب قوم لوطٍ لوطاً (عليه السلام) : ﴿ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (٨٢) (الأعراف ٨٢ ، والنمل ٥٦) ، وخطاب القرآن أبا جهل : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ (الدخان ٤٩) ظاهرهما المدح ؛ لكن عند الرجوع إلى مناسبة النصين يتضح أنهما جاءا على خلاف الظاهر ، وأن حقيقتهما الذم ، ولولا الإحاطة بملايسات النص الأول ؛ ومعرفة سبب نزول الآخر لذهب الناس في تأويلهما مذاهب .

فهذا وأمثاله يجعل النص محتمل الدلالة على أكثر من وجه ، ولا سبيل إلى سبر غوره ما لم يجر التعريف به والإحاطة بملاساته ابتداءً ؛ وإلا غدا تحليله أمراً شبه مستحيل . على أننا لا نروم حصر الإلمام بملاسات النص والتعريف به بعلة تشابه النصوص وتشاكلها ؛ فيكفي أن التعريف بالنص والإحاطة بملاساته يجلي خصوصية النص ؛ اشتبه بغيره أم لم يشتبه . ومن أوليات التعريف بالنص تحديد نوعه ( قرآن ، شعر ، سجعة ، حكمة ، مثال ، خطبة ، رسالة ، وصية ... ) . ثم المناسبة التي قيل فيها ؛ فلكل نصٍ داعٍ يقف وراء إنشائه ، وصولاً إلى الفكرة التي ينضوي عليها ، والغاية التي أنشئ لأجلها . بل إن كل ما يمتُّ إلى النص بصلة ، ويعين على فهمه - زيادة على معرفة نوعه ، ومناسبته ، ومضمونه - داخل في جملة التعريف به .

### تحليل بنية السورة

#### ( سورة الكهف – المناسبة والمضمون )

وفي ضوء ما سبق ؛ فإن مما يعرف بسورة الكهف معرفة ( اسم السورة ، من سماها بذلك؟ ، عدد آياتها ، أمكية هي أم مدنية؟ ، سبب نزولها ، فضائلها ) .

دُعيت هذه السورة المباركة بسورة الكهف ، والنبي (ﷺ) هو من سماها بذلك ؛ لقوله (ﷺ) : (( من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من الدجال )) . وهي من السور المكية ، وعدد آياتها ( ١١٠ ) آية كريمة .

وأكثر المفسرين على أن سبب نزولها حنق المشركين على الدين الجديد الذي حلَّ بمكة ؛ واستيائهم من تزايد عدد الداخلين فيه ؛ فبعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود ، ليتقوا بهم على محاربة هذا الدين ، فهم أهل كتاب ، وعندهم من علم الأنبياء علم ليس عند أهل مكة . فأشار عليهم اليهود بسؤال النبي (ﷺ) عن ثلاثة أشياء لا يعرفهن إلا نبي ، فإن أجاب فهو كذلك ، وإلا فهو رجل متقول . قالوا لهم : سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ؛ ما كان أمرهم ؟ . وسلوه عن رجلٍ طوافٍ بلغ مشارق الأرض ومغاربها ؟ . واسألوه عن الروح ؛ ما هي ؟ . فرجع مبعوثا قريش إلى

قومهم بمشورة اليهود ؛ وقد اجتمعت كلمتهم على امتحان النبي (ﷺ) بهذه الأسئلة ، فوعدهم النبي (ﷺ) بالإجابة عنها ساعة غدهم ، لكنه لم يقل : ( إن شاء الله ) ، فمكث ثلاثة أيام - وقيل : خمسة عشر يوماً - لا يُوحى إليه ، فأرجف أهل مكة زاعمين أنّ النبي (ﷺ) أخلفهم مواعده ، فأحزن ذلك النبي (ﷺ) وشقّ عليه ، حتى جاءه جبريل عليه السلام بسورة الكهف تحمل الإجابة عن أسئلتهم ، فالفتية هم أهل الكهف ، والرجل الطواف هو ذو القرنين . وأنزل عليه فيما أنزل في أمر الروح - من سورة الإسراء - قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء ٨٥) .

ولهذه السورة المباركة فضائل كثيرة ، منها ما جاء في حديثه (ﷺ) :

- ١ - : (( من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من الدجال )) . وفي رواية : (( من آخرها )) .
- ٢ - وقال (ﷺ) : (( من قرأ سورة الكهف كما أنزلت ؛ كانت له نوراً من مقامه إلى مكة ، ومن قرأ عشر آيات من آخرها ثم خرج الدجال لم يضره )) .
- ٣ - وقال (ﷺ) : (( من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة ، أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق )) .
- ٤ - وقال (ﷺ) : (( من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة ، أضاء له من النور ما بين الجمعتين )) .

## مضامين السورة

لسورة الكهف مضامين كثيرة ؛ فهي تستعرض أشكال الدعوة بكل مستوياتها :

- ١ - فتنية يدعون الملك : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنُذَعَبَ مِنْهُ دُونَهِ إِلَّا هَا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ (١٤) .
- ٢ - وصاحب يدعو صاحبه : ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفُثَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ مَرْجُلًا ﴾ (٣٧) .
- ٣ - ومعلم يدعو تلميذه : ﴿ قَالَ فَإِنِ ابْتَغَيْتَنِ فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ (٧٠) .

٤ - وحاكمٌ يدعو رعيته : ﴿ قَالَ أَمَا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَّكَرًا (٨٧) وَأَمَا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ﴾ .

وواضح أنّ هذه القصص الأربع تستعرض الفتن الأربع ؛ التي لا بد أن يُبتلى بها ابن آدم ( بعضها أو أغلبها ، وربما كلها مجتمعة ) ، وهي :

- ١ - فتنة الدين ( ممثلة بقصة أهل الكهف ) .
- ٢ - فتنة المال ( ممثلة بقصة صاحب الجنتين ) .
- ٣ - فتنة العلم ( ممثلة بقصة موسى (عليه السلام) مع الخضر (عليه السلام) ) .
- ٤ - فتنة السلطة ( ممثلة بقصة ذي القرنين ) .

وإذ تستعرض السورة المباركة هذه الفتن الأربع ؛ فهي لا تقف عند حد الإخبار عنها فحسب ؛ على أساس أنّ القصص المستشهد بها من الغيبيات ؛ بل وتستحضر إلى جانب الإخبار عنها ما يعصم من الوقوع فيها ، وهو أفراد الله تعالى بالعبودية والدعوة إلى الإيمان به وحده سبحانه ؛ ومن ثم فقضية ( التوحيد ) هي الرابط المشترك بين هذه القصص الأربع ، وهي السبيل الذي تقدمه السورة للنجاة من هذه الفتن ، بل ومن فتن الحياة كلها .

وتستعرض سورة الكهف إلى جانب قصصها الرئيسية الطويلة قصصاً قصيرة تشترك معها في الدعوة إلى وحدانية الله تعالى وإخلاصه بالعبودية ، كقصة الدنيا وزينتها وأهوال يوم القيامة ، وقصة سجود الملائكة لآدم (عليه السلام) ، و قصة النفخ في الصور .. .

### إضاءة على بعض قصص السورة ( أصحاب الكهف )

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَا كَثُرَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ

زِينَةَ لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨) أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ  
الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا  
مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرْبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحَرْبِينَ  
أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاَهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا  
عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا (١٤)  
هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيْنَ يَدَيْهِمْ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذْ  
اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا  
(١٦) وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ  
مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ  
رُقُودٌ وَتُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا  
وَلَمَلَّتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨) وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ  
قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ  
وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا  
أَبَدًا (٢٠) وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ  
فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (٢١) سَيَقُولُونَ  
ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ  
بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) وَلَا تَقُولَنَّ لَشَيْءٍ  
إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا  
رَشَدًا (٢٤) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةِ سِنِينَ وَأَزْدًا دُونَ تِسْعَا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ  
وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦) ﴿ (الكهف ١ - ٢٦) .

## الفتية - أصحاب الكهف (الرفقة الصالحة - التوحيد)

استُفْتِحَت السورة المباركة - بعد حمد الله تعالى على إنزال الكتاب المستقيم الهادي إلى طريق الحق ؛ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) ﴾ ؛ ولفت النظر إلى حقيقة الحياة وما ستؤول إليه هذه الأرض الخضراء يوم النشر وعند الحشر ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينةً لها لِنَبْلُوَهُمْ أَهْلُهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨) ﴾ - بأولى قصصها الطوال الأربع ؛ قصة الفتية الذين فروا من الملك بدينهم حيث الكهف الذي تُسَمَّت السورة باسمه .

إنَّ القرآن الكريم لم يكتف بإكرام الكهف - وهو جماد - بأن تُسَمَّت السورة باسمه ﴿ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ ﴾ (٩) ؛ بل تعداها إلى الحيوان الذي رافقهم ﴿ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ (١٨) في أسلوب رائع يلفت نظر المؤمن إلى أنَّ الرفقة الصالحة تعم بركتها الجماد والحيوان ، فكيف بالمتحابين في الله أنفسهم وقد وعدوا بمنابر من نور يوم القيامة ؛ يغبطهم عليها الأنبياء والصديقون والشهداء .

ويستمر تكريم الجماد والحيوان في هذه السورة ما تلا تال هذه الآيات الكريمات ﴿ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ ﴾ (٩) ، و ﴿ كَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ (١٨) إلى قيام الساعة على كل حرف بحسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمئة ضعف ، والله يضاعف لمن يشاء ، فإذا كان هذا شأن الكلب والحجارة ؛ فما شأن الفتية أنفسهم عند الله تعالى ( هم القوم لا يشقى بهم جليسهم ) ، ويكفيهم فضلاً من الله تعالى أن من قرأ الآيات العشر التي استُفْتِحَت السورة بها قصتهم ؛ عُصِمَ من فتنة الدجال ! .

وتأكيداً من القرآن الكريم على هذه الرفقة الصالحة والصحة المباركة ؛ عاب على الناس انشغالهم بعدد الفتية ، وبأسمائهم ، وبمكان الكهف ، وكم لبثوا ... ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ ﴾ (٢٢) كما هو شأن اليهود ؛ فصرف أنظار المؤمنين إلى جوهر القصة من

السورة ؛ ﴿ إِذْ أَوْى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ (١٠) ،  
 وَأَنَّ الْعِبْرَةَ فِي قِصَّتِهِمْ تَوْحِيدَ اللَّهِ تَعَالَى بِالرَّبُّوبِيَّةِ وَالْأَلُوْهِيَّةِ ؛ ﴿ هُوَآءِ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ  
 آلِهَةً لَّوَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيْنِ يَمِينٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ (١٥) ، وهذا هو سر احتراز  
 الفتية بالكهف ، وسر كرامتهم على الله تعالى .

وإذ يدعو القرآن الكريم نفوس الفتية إلى الكهف ليعتصموا به من الملك وزيانيته  
 لئلا يفتنهم في دينهم ؛ فهو يدعو النفوس المؤمنة كذلك إلى الاعتصام بهذه السورة من  
 فتن الدنيا ﴿ فَأُوْءُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴾ (١٦) ، وقد  
 تكفل النبي لمن احترز بسورة الكهف أو ببعض آيها العصمة من فتنة الدجال وغيرها من  
 فتن الدنيا ؛ زيادة على النور الذي سيخلع عليه ببركتها .

إنَّ للصَّحْبَةَ الْمُؤْمِنَةَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْمُبَارَكَةِ أَمْرٌ جَلِيلٌ وَشَأْنٌ عَظِيمٌ ؛ إِذْ جَعَلَهَا اللَّهُ  
 تَعَالَى الْوَسِيلَةَ إِلَى عِبَادَتِهِ وَالدَّعْوَةَ إِلَى طَاعَتِهِ ، وَيَتَوَالَى لَفْتِ النَّظَرِ مَعَ قِصَصِ السُّورَةِ  
 الْآخَرَى الطَّوِيلَةَ إِلَى هَذَا السَّرِّ الْعَجِيبِ ؛ فَصَاحِبٌ يَدْعُو صَاحِبَهُ : ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ  
 يُحَاوِرُهُ ﴾ (٣٤) ، ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴾ (٣٧) ؛ وَآخِرَ يَلْتَمِسُهَا فِي رَفَقَةِ  
 الصَّالِحِينَ : ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ (٦٦) .

كما لفتت السورة النظر إلى أَنَّ ( صاحب الجنتين ) وجدها ؛ لكنه لم يفد منها ؛  
 ﴿ فَاصْبِرْ يُقَلِّبُ كَيْفَهُ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾  
 (٤٢) ، وَأَنَّ الْآخِرَ ( موسى عليه السلام ) وجدها إذ طلبها ؛ وأفاد منها بالقدر الذي شاء الله  
 أن يفيده بها ؛ ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (٨٢) ، فجعل الله النكال كل النكال  
 والخسارة كل الخسارة لمن زهد في هذه الصحبة الصالحة ورجب عنها ؛ حاثًا نبيه الكريم  
 محمد (ﷺ) عليها : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ  
 عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٢٨) ؛ ومحذرًا إياها من التفريط بها أو إبدالها بغيرها :  
 ﴿ وَلَا تَطَّعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ (٢٨) .

## موسى (عليه السلام) والخضر (عليه السلام) ( رحلة العلم – ودروس التربية )

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتَاهُ إِنَّا غَدَاءُ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتِيَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلَمَ مِنْ مِمَّا عَلَّمْتُ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَاذْهَبَا فِي الْبَحْرِ فَبَاسَ فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخْرَقْتُهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَاذْهَبَا فِي الْبَحْرِ فَبَاسَ فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخْرَقْتُهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نَكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتَهُ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَاذْهَبَا فِي الْبَحْرِ فَبَاسَ فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخْرَقْتُهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نَكْرًا (٧٧) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ نَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٨٢) ﴿ (الكهف ٦٠ - ٨٢) .

وهذه قصة أخرى ؛ تحمل خبراً آخر يروي رحلة موسى (عليه السلام) للقاء الخضر (عليه السلام) وطلب التعلم على يديه ، دعانا القرآن الكريم للتأمل فيها ملياً ؛ والاعتبار بما جاء فيها من دروس تربية ؛ لأنها جمعت أكرم معلم بأكرم متعلم . على أن الاستجابة لهذا المطلب الكريم لا تكون بغير أدوات التحليل ؛ ولاسيما السؤال الأول : ( ماذا أراد القرآن أن يخبرنا ؟ ) ؛ لنخلص فيما نستقبل من موضوعات إلى الإجابة عن السؤال الثاني : ( كيف قال ذلك ؟ ) .

١ - قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ ﴾ .

وفيها : يستحب للمعلم اصطحاب من يرى فيه الفطنة والنجابة من طلابه في الحضر والسفر ؛ ليفيد من علم أستاذه ومن وأدبه ، ولا بأس إن خدم أستاذه إكراماً له .  
٢ - قوله تعالى : ﴿ لَا أُبْرِحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ (٦٠) .

وفيها : ينبغي لطالب العلم - بعد اتخاذ الصحبة الصالحة - : تحديد الهدف ، والعزيمة على تحقيقه ، وبذل الأسباب ، والإصرار على تحصيله ، ولو طال به العهد .  
وفيها : بيان فضيلة العلم والحث على طلبه والرحلة إلى تحصيله ، وإنه أجل ما يؤمل الإنسان وأكرم ما يبتغي .

٣ - قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ .

وفيها : أن الله تعالى يقدر على عبده أقداراً ؛ يراها العبد شراً محضاً ؛ وهي خير محض ؛ فيها توفيقه وصلاح أمره ( كنسيان الحوت هنا ) .  
٤ - قوله تعالى : ﴿ قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾ .

وفيها : الحث على التواضع لطلبة العلم في المأكل والملبس ونحوها ، ولا بأس إن خدم الطالب أستاذه إكراماً له .

٥ - قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ (٦٢) .

وفيها : السفر مشقة كما جاء في حديثه (ﷺ) : (( السفر قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ )) .  
وأن موسى (عليه السلام) تحمل مشقة السفر لأجل العلم والتعلم .  
وفيها : جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى طبيعة النفس من نصب أو جوع

أو عطش ؛ إذا لم يكن على وجه التسخّط ؛ وكان صدقاً .

٦ - قوله تعالى : ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ .

وفيها : إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان على وجه التسويل والتزيين ، وإن كان الكل بقضاء الله وقدره .

٧ - قوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتِيَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ (٦٥) .

وفيها : أنّ الله تعالى منّ على الخضر (عليه السلام) بصفة العبودية أولاً ، ثم بالرحمة ثانياً ، ثم بالعلم ثالثاً . وأنّ العلم نوعان : علم مكتسب يدركه العبد بجده واجتهاده ، وعلم لدنّي يهبه الله لمن يمنّ عليه من عباده .

٨ - قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَىكَ الْفَلَكُ الْكَلْبِيُّ ﴾ . وفيها : توجيه للمتعلّم بالتلطف عند سؤال المعلم .

٩ - قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَبِعَكَ ﴾ . وفيها : الحرص على مرافقة العالم من أجل التعلم والإفادة من علمه ؛ فضلاً عن أدبه وأخلاقه .

وفيها تواضع الفاضل للتعلم ممن دونه ؛ فإنّ موسى بلا شك أفضل من الخضر .

وفيها : تعلم العالم الفاضل للعلم الذي لم يتمهّ فيه ممن مهر فيه ، وإن كان دونه في العلم بدرجات كبيرة .

١٠ - قوله تعالى : ﴿ أَنْ تَعْلَمَنْ مِمَّا عُلِّمْتَ ﴾ .

وفيها : إضافة العلم وغيره من الفضائل لله تعالى ، وشكر الله عليها بعد الإقرار بها .

١١ - قوله تعالى : ﴿ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ (٦٦) .

وفيها : أنّ العلم النافع ، هو العلم المرشد إلى الخير ، فكل علم يكون فيه رشد وهداية لطريق الخير وتحذير من طريق الشر أو وسيلة لذلك ؛ فإنّه من العلم النافع ، وما سوى ذلك ؛ فإما أن يكون ضاراً ، أو ليس فيه فائدة .

١٢ - قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ (٦٧) .

وفيها : أنّ من لا يتحلّى بالصبر على صحبة العلماء ، ولا يحمل نفسه على مكابدة مشاق التعلم ؛ يفوته كثير من العلم لقلّة صبره .

١٣ - قوله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) ﴾ .

وفيها : أنَّ الدافع الرئيس لتصبير النفس على غاية ما إدراك ثمرتها ، وإلا فالأمر الذي تُجهل غايته ولا يُحاط بفائدته لا يتوقع بذل الصبر على أسبابه .

١٤ - قوله تعالى: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) ﴾ .

وفيها : وجوب ربط الصبر بالمشيئة .

وفيها : أنَّ من لوازم الاتباع الطاعة وعدم المعصية . وأنَّ العزم على فعل شيء

ليس بمنزلة فعله ، فإنَّ موسى (عليه السلام) وطَّن نفسه على الصبر ولم يفعل .

١٥ - قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) ﴾ .

وفيها : الأمر بالتأني والتثبت ؛ وعدم المبادرة بالحكم على شيء حتى يتبين لطالبه

المقصود منه .

وفيها : جواز اشتراط المتبوع ( المعلم ) على التابع ( المتعلم ) عدم السؤال عن

أي شيء عند مباشرة التعليم ؛ حتى يأذن المتبوع لتابعه بالسؤال عن علة حدوثه ؛ فيوضحه له .

١٦ - قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَخْرَقْتُهَا تَعْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ .

وفيها : أنَّ موسى (عليه السلام) قام بإنكار المنكر على الخضر (عليه السلام) ؛ وهو إغراق

السفينة - فيما ظن أنه منكر - ولو كان ذلك مخالفاً لشرطه معه .

١٧ - قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) ﴾ .

وفيها : حث المعلم على الرفق بالمتعلم ؛ والتجمل بالحلم والأناة في معاملته ،

ولاسيما عند الوقوف على شيء من أخطائه ، على أن يذكره بالشرط الذي اتفقا عليه .

١٨ - قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾ .

وفيها : حث المتعلم على الاعتراف بتقصيره مع بيان السبب ، وطلبه الصفح عما

بدر منه .

وفيها : أنَّ الناسي غير مؤاخذ بنسيانه ؛ لا في حق الله ولا في حق العباد .

١٩ - قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) ﴾ .

وفيها : أنه ينبغي للإنسان - أي إنسان ؛ عالماً كان أو متعلماً - أن لا يكلف من يليه ما لا يطيق ، أو يشق عليه ويرهقه ، فإنّ هذا مدعاة للنفور منه والسامة من علمه ، بل يأخذ بالمتيسر ليتيسر له الأمر .

٢٠ - قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَقْتَلْ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ .

وفيها : أنّ موسى (عليه السلام) قام بإنكار المنكر على الخضر (عليه السلام) فيما ظن أنه منكر - وهو قتله الغلام - ولو كان مخالفاً لشرطه معه ، فقتل النفس أمر منكر لا يمكن السكوت عليه .

٢١ - قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكَرًا ﴾ (٧٤) . وفيها : أنّ القتل من أنكر الذنوب .

٢٢ - قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ (٧٥) .

وفيها : تسويغ المعلم بعض أخطاء طلابه بعذر الجهل وقلة العلم .

وفيها : كذلك رفع درجة العتاب من الدرجة ي ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ ﴾ إلى الدرجة

الثانية ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ ﴾ عند تكرار الخطأ .

٢٣ - قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنْ سَأَلْتِكُمْ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَمَا تَصَاحِبُنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ (٧٦) .  
وفيها : اعتراف الطالب بخطئه ، واستحقاقه نيل الجزاء المترتب على خطئه بعد أن بلغ حده في الإعذار .

٢٤ - قوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْفُضَ فَاقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ (٧٧) .

وفيها : أنّ المعاملة بالمثل ليست من شيم العلماء العاملين ، بل إنّ مقابلة الإساءة بالإحسان هي الواجب .

وفيها : أنّ موسى عليه السلام قد بلغ حد الإعذار في المرة الثالثة .

٢٥ - قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ وفيها : حزم المعلم مع المتعلم بعد نفاذ أعذاره

٢٦ - قوله تعالى : ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (٧٨) .

وفيها : يجب على المعلم توضيح ما غفل عنه المتعلم أو جهله قبل إنفاذه ما ألزم

نفسه به مع تلاميذه .

٢٧ - قوله تعالى: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾ .

وفيها : استعمال الأدب مع الله تعالى في الألفاظ ؛ فإنَّ الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه بقوله : ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ ، وأما الخير ؛ فأضافه إلى الله تعالى في قوله : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزُهُمَا ﴾ .

٢٨ - قوله تعالى: ﴿ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ .

وفيها : تفسير لما وقع من الخضر (عليه السلام) من أعمال ظنها موسى (عليه السلام) منكراً ؛ من تخريب السفينة ، وقتل الغلام ، وترك الأجر على بناء الجدار . وأنها كانت من رحمة الله بمن وقعت لهم ، وأنها كانت بأمره سبحانه وبعلمه ، فهي وإن جرت على يد الخضر (عليه السلام) إلا أنها قدرٌ محضٌ ، وهو سبحانه يقدر على العبد أقداراً يكرها وفيها صلاح دينه ( كما في قصة الغلام ) و صلاح دنياه ( كما في قصة السفينة والجدار ) .

٢٩ - قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (٨٢) .

وفيها : أنه ينبغي للصاحب أن لا يفارق صاحبه في حال من الأحوال ويترك صحبته حتى يُعْتَبَهُ و يُعْذَرَ منه ، كما فعل الخضر مع موسى (عليه السلام) .

## أولاً : المستوى الصوتي

يتناول المستوى الصوتي جانبين أساسيين في تحليل النص ؛ هما :

أولاً - الأصوات المفردة ؛ ويشمل الأصوات الصوامت (الحروف الصحيحة) والصوائت بنوعيهما القصيرة (الحركات) والطويلة (حروف العلة) من حيث : طبيعتها ، وخصائصها ، وسماتها ، وصفاتها ، ومخارجها ( متحركة ، ساكنة ، احتكاكية ، حنجرية ، جهورة ، مهموسة ... ) .

ثانياً - التشكل الصوتي ؛ ويتكون من المقاطع الصوتية التي تتألف منها الكلمة ، والملاحم الصوتية التي تلف هذه التشكلات الصوتية للتركيب اللغوية ؛ من نبر ، وتنغيم ، وطول ( مد ) ، وسكت ( وقف ) ، وحذف ، وإبدال ، وإدغام .. وغيرها .

ووظيفة التحليل ضمن هذين الجانبين تكمن في رصد إسهام هذه المعطيات الصوتية في رسم دلالة النص إسهاماً مباشراً ؛ فضلاً عما توحي به إحصاء .

### ملاحح الأصوات المفردة :

لكل صوت من أصوات هذه اللغة - كما ألمحنا - سمات خاصة به تميزه من سائر أصواتها ؛ فنتشكل له لأجل ذلك ملاحح صوتية مائزة وسمات موحية ( قوة ، شدة ، ليونة ، سهولة ... ) ، فالأصوات المجهورة مثلاً لقوتها في النطق لها تأثير مختلف في الأسماع عن المهموسة ، ونحو ذلك تباين الأصوات المفخمة عن المرققة ، والشديدة عن الرخوة ، وهكذا سائرها ؛ ففي قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أُنْ تَجْعَلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) ﴿ يعكس صوت السين - وهو صوت مهموس - في كلمة ( سدًّا ) حالة الضعف التي كان عليها هؤلاء القوم ؛ يظهر ذلك في طبيعة كلامهم وطريقة سؤالهم ، لكنهم مع ذلك يطلبون شيئاً قوياً يمنعهم من القوم المفسدين ( قوم يأجوج ومأجوج ) قد أوحى الدال المجهورة به ؛ إنهم يطلبون ( سدًّا ) ، فأجابهم ذو القرنين بأنه سيجعل بينهم وبين القوم المفسدين ( ردماً ) ؛ والردم في اللغة أقوى من السد وأكبر ؛ وناسب ذلك مجيء جميع أصواته مجهورة ؛ وزادها قوة اختتامها بالميم الذي يتسم بضم مخرجه وتجمعه ؛ موحياً بتجمع الردم ؛ والتجمع علامة على القوة . وغير خافٍ مدى التوافق والانسجام بين طبيعة هذه الأصوات والمعنى الذي عكسته على سياق النص بأدبية عالية لفتت النظر إليها .

إذن فالأصوات لها فاعلية جمالية ومعنوية تؤثر في النشاط الإيقاعي والانبعاث الموسيقي لتراكيب النص ، وإن استعمال الأصوات في النص الأدبي بهذه المثابة ؛ وفقاً لتمايز أجراسها من جهة ؛ وانسجامها مع معنى السياق من جهة أخرى ؛ يعطي مؤشراً يوصل إلى إدراك جماليات النص ، ومن هنا كانت دراسة الصوت مخرجاً وصفة ( جهر ، همس ، تفخيم ، ترقيق ، احتكاك ، انفجار ... ) تشكل المرحلة الأولى للدراسات الصوتية ، وأساساً من أسس الدراسة الأدبية عامة والأسلوبية الجديدة على وجه الخصوص .

## أولاً - الجهر والهمس :

يتشكل ملمحا الجهر والهمس في أول مراحل التكون الصوتي نتيجة لتحرك الأوتار الصوتية وتذبذبهما بشكل قويٍّ أو لئینٍ . ونظراً إلى العلاقة المبكرة بين اللفظ والمعنى في الدراسات اللغوية ؛ فقد كان لهما المرتبة الأولى في التحليل والدراسة الأدبية .

### أ- الجهر :

الجهر : ارتفاع في شدة الصوت ؛ ناتج عن اهتزاز الوترين الصوتين اهتزازاً منتظماً عند النطق بالأصوات : ( ء ، ا ، ب ، ج ، د ، ذ ، ر ، ز ، ض ، ط ، ظ ، ع ، غ ، ق ، ل ، م ، ن ، و ، ي ) ، ومن هنا جاءت تسميتها بالمجهورة ؛ فالجهر يحدث في نطقها ملمحاً صوتياً موسيقياً شديداً ومميزاً ، فينشأ لها بهذه الشدة من سمات القوة وطبيعة التأثير ما لا يكون لغيرها من الأصوات ، والقرآن الكريم يوظف هذه الخصيصة في الأصوات المجهورة في مواضع عديدة من سورة الكهف ، فمن ذلك تعبيره عن دلالة ( التهديد والوعيد ) في قوله تعالى : ﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ (٤) ، فطبيعة الإنذار والوعيد تحتاج إلى أصوات ذات وضوح سمعي لغرض التوصيل ودقة الإسماع ، وإن تكرر الأصوات المجهورة ( الذال ، والذال ، والراء ) ذات الوقع القوي المؤثر تكشف أبعاد المعنى الغريب ؛ وتلفت الانتباه إليه لخطورته عليهم ، ومن ثم ارتبطت بمراكز الجملة معنوياً في خط متوازٍ ؛ ومنسجم مع المعنى الذي تحمله الآية ، فهناك : ( إنذار ، وادعاء ، وقضية مدعاة ) ، وطبيعة الأصوات المجهورة تزيد من تأثير وقعها على السامع تهديداً ووعيداً .

### ب - الهمس :

الأصوات المهموسة تشمل ما تبقى من أصوات اللغة ، وقد جمعت في عبارة : ( فحثة شخص سكت : ف ، ح ، ث ، ه ، ش ، خ ، ص ، س ، ك ، ت ) ؛ والهمس فيها متسبب من عدم اهتزاز الأوتار الصوتية عند النطق بها ، على العكس من الجهر ؛ فلا يهتز معها الوتران الصوتيان ولا يسمع لهما رنين . ولأجل ذلك فالهمس

ملمح صوتي يتسم بالليونة في طبيعته وفي تكوينه ، وفيه ملمح من الحزن أحياناً ، والقرآن الكريم يوظف هذه الخصيصة في الأصوات المهموسة في مواضع عديدة من سورة الكهف ، فمن ذلك تعبيره عن دلالة ( الطمأنة والتبشير ) في قوله تعالى : ﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ (٢) ؛ ففي الآية الكريمة ألفاظ سهلة في طبيعة أصواتها ( يبشر ، الصالحات ، حسناً ) ، تلاقت مع المعاني المريحة المحببة للنفس وتوافقت مع الأصوات المهموسة اللينة الرقيقة ، فطبيعة الصوت المهموس في ألفاظ الآية الكريمة تشكل عنصر راحة وتقريب ؛ وكأن المتكلم يريد أن يقرب السامع منه فيهمس في أذنه ، والمؤمنون من أقرب الخلق إلى الله ، فارتبطت الأصوات المهموسة في مراكز الجملة معنوياً في خط متوازٍ ومنسجم مع المعنى الذي تحمله الآية ، فهناك : ( بشارة ، ومبشرين ، ومبشراً به ) ، وطبيعة الأصوات المهموسة تزيد من أنس السامع بها طمأننةً وتبشيراً .

### ثانياً - التفخيم والترقيق :

صفتان صوتيتان تخصّان صوتي اللام والراء فحسب .

#### أ - التفخيم :

وتفخيم اللام أو الراء ( كلياً أو جزئياً ) ناتج عن حركة مؤخرة اللسان إلى الطبق عند النطق بالصوت ( اللام أو الراء ) ، فتظهر فيه قوة وتمكن وتعظيم خلافاً للصوت المرقق ، وقد وظّف القرآن الكريم هذه الخصيصة في تفخيم هذين الصوتين عند تصويره مشهد الدنيا في أحوال الآخرة ؛ وهو من المشاهد العظيمة المخيفة ؛ وكيف ستؤول أرضها إلى صعيدٍ ( تراب ) جرزٍ ( بيضاء لا نبت فيها ) : ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ (٨) ؛ فقد ساعد تتابع الأصوات المفخمة - بما فيه من دلالات القوة والتمكين - في ( لجاعلون ، عليها ، جرزاً ) من وقع التخويف من عاقبة الأمور ، بعد القطع بتحقيق المصير في ( صعيداً ) ؛ فكان أكثر انسجاماً مع سياق التعظيم الذي بدأت به الآية ( دلالة التعظيم والتهويل ) .

## ب - الترفيق :

الترفيق الصوتي في مقابل التفخيم ، فمع الصوت المرقق يستقل اللسان ويمتد ويرق أغلبه ، فيخرج الصوت وفيه ملمح من ملامح الهدوء ، وصفة من صفات اللين ، وسمي كذلك أيضاً لأنَّ حركة اللسان معه تأخذ وضع الاستقلال ، فعند خروج الصوت ينخفض اللسان عن مستوى التفخيم ، ويلين المخرج ، فيكتسب الكلام لينا ورقةً .

وإذا كان من المناسب جداً ترقيق الكلام في سياق ( التودد ) ؛ فقد جاءت كلمات موسى (عليه السلام) بهذه المثابة وهو يتودد الرجل الصالح ؛ فيطلب رفقته مرة : ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَبِعَكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا (٦٦) ﴾ ، ويطلب الصفح عنه أخرى : ﴿ قَالَ لَا تَأْخُذْ بِنِجْمِ مَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) ﴾ ، ففي السياقين طلب واعتذار مؤدبان ولذا جاءت كلماته رقيقة لينة خالية من التفخيم ؛ طمعاً في الصفح والرفقة .

## ثالثاً - الأصوات الانفجارية ( أصوات الشدة ) :

يصاحب خروج الأصوات الانفجارية - ( ء ، ب ، ت ، د ، ض ، ط ، ك ، ق ) - انتفاخ المخرج دفعة واحدة ؛ وذلك لانحباس النفس عند النطق بها ، مما يعطي الصوت قوة وشدة ؛ ومن ثم ارتبط استعمالها بالحالات الانفعالية ؛ فضلاً عن إيرادها في سياق التهديد ، والوعيد ، وعظيم الجزاء .

ومن مواضع توظيف الأصوات الانفجارية في حالات الانفعال النفسي ما جاء على لسان فتى موسى (عليه السلام) وهو يخبره عن سعي الحوت الميت إلى البحر بهيأة لم يألفها ولم يتوقعها ؛ مما أثار دهشته ؛ فقال : ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) ﴾ ، فتتابع الصوت المهموز وتكرار استعماله بنحو عشر مرات - وهو من أقوى الأصوات الانفجارية وأعماقها ، فمخرجها من الأوتار الصوتية نفسها - مرتبط بحالة الفتى المندهش من أمر الحوت ؛ ولذا كان منفعلاً وهو ينقل الخبر لموسى (عليه السلام) .

ويتكرر توظيف صوت الهمزة الانفجاري في خطاب العبد الصالح موسى (عليه السلام) بنية (التنبيه) : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ (٧٢) ، ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ (٧٥) ، فالعبد الصالح أراد أن ينبه موسى (عليه السلام) إلى ما سيقبل عليه من مواقف صعبة ، وناسب ذلك أن هذه الأصوات الانفجارية توظف السمع وتذكي الفكر .

#### رابعاً - الأصوات الصفيرية :

الأصوات الصفيرية : ( الصاد ، والسين ، والزاي ) تتسم بصفات خاصة تجعل منها عائلة واحدة تشترك بصفة الاحتكاك ؛ فتحدث صفيراً عند النطق بها لضيق مخرجها ؛ مما يعطيها سمة القوة والوضوح السمعي .

وبعبارة قوية وواضحة يسأل العبد المؤمن ربه أن ينتصف له من صاحب الجنتين : ﴿ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ (٤٠) فشكلت كلماته المشتملة على الحروف الصفيرية مراكز صوتية مرتبطة بالموقف الذي لجأ فيه إلى ربه القادر على الفصل بين موقف الإيمان والكفر ، فظهرت الأصوات الصفيرية في الطلب ( فعسى ، يرسل ، حسباناً ، السماء ) والنتيجة ( فتصبح صعيداً زلقاً ) .

وبنحو هذا السؤال يؤكد موسى صبره على الدعوة وحرصه على التعلم مخاطباً العبد الصالح بقوله : ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ (٦٩) ، فارتبطت الأصوات الصفيرية في مسألته بمراكز تقتضي الإسماع والتوكيد ، ولم يكن لهذا السياق مثل الأصوات الصفيرية أداءً .

#### المقاطع الصوتية :

إن مظاهر التشكل الصوتي في النص اللغوي لا يقتصر على الأصوات المفردة - كما رأينا - فحسب ، فربما أوحى المقاطع المتتابعة في الجملة بملامح صوتية قد لا يوحي بها الصوت المفرد أو أصوات الكلمة مجتمعة ؛ ما لم تتشكل في أنماط مقطعية متكررة تمتد مساحتها على ألفاظ التركيب اللغوي كله ، فكل تركيب معنى يعبر عنه ،

وسياق يحمل في طياته مشاعراً وأفكاراً ؛ قد تكون متلونة في مواقف ، وثابتة في مواقف أخرى ، ولكل هذه الحالات أثر على طبيعة تشكل المقاطع الصوتية لهذه التراكيب . إذن فدراسة المقاطع الصوتية في الدراسات الأسلوبية يشكل باباً متصلاً ومكماً لدراسة الأصوات المفردة ، فالتمتعن في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) ﴾ . يلاحظ عليها سمة الطول ؛ ذلك أن التشكل المقطعي لها مكون من ( ٤٦ ) مقطعاً قصيراً ، والطويل منها ( ٦٤ ) مقطعاً ، وأن غلبة المقاطع الطويلة في أغلب تراكيب الآية لتوحي بالبعد النفسي الذي كان عليه أصحاب الكهف ، والمدة الطويلة التي لبثوها فيه ، ففكرة البعث من أهم القضايا التي عني القرآن الكريم بإثباتها في البيئة المكية ؛ ولذا جاء التشكيل المقطعي مساعداً في إبراز الفكرة الرئيسية .

كما أن زيادة المقاطع الطويلة على القصيرة في قوله تعالى : ﴿ مَا كُنْ فِيهِ أَبَدًا (٣) ﴾ لتوحي بالسرمدية التي سيحياها أهل الجنة في الجنة ؛ زيادة على الاطمئنان النفسي والسكينة التي سينعمون بها فيها ، فالآية تشكلت من ( ٩ ) مقاطع : [ ما / ك / ثي / ن / في / ها / أ / ب / دا ] . منها ( ٤ ) مقاطع قصيرة ، و ( ٥ ) مقاطع طويلة ؛ أي بزيادة المقاطع الطويلة على القصيرة ؛ إحياء بطول مدة المكوث .

لكننا نجد نسبة المقاطع القصيرة - في مواضع أخرى من السورة - تزيد على المقاطع المتوسطة والطويلة بما يناسب تلون سياقها ، فربما شكلت المقاطع القصيرة بداية حركة داخل السرد ؛ والحركة تناسبها المقاطع القصيرة أكثر ، كتتابع الحركة المقطعية القصيرة في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ فَاذْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكَبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ (٧١) ، وقوله تعالى : ﴿ فَاذْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ﴾ (٧٤) ، وقوله تعالى : ﴿ فَاذْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعْنَا أَهْلَهَا فَاذْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ﴾ (٧٧) .

فبعد التمعن في التشكّل المقطعي لهذه الآيات الكريمة يلاحظ فيها ما يأتي :

- ١ - الآية الأولى - ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ - تشكلت من ( ٣٤ ) مقطعاً : القصيرة ( ١٩ ) مقطعاً ، والطويلة ( ١٥ ) مقطعاً ، ولا يخفى أنّ زيادة المقاطع القصيرة في الآية الكريمة تشيع جواً من الحركة ؛ وذلك لطبيعتها القصيرة ، فيتحرك الناطق معها بسرعة أكثر مما لو كان مع المقاطع الطويلة ، والحركة المقطعية في المقاطع القصيرة تتناسب مع تسارع موسى (عليه السلام) وفتاه ؛ وتلهفهم للوصول إلى المكان المقصود ، فضلاً عن تسارع حركة الحوت عند مجمع البحرين وسربه في البحر .
- ٢ - كما يلاحظ الشيء نفسه في الآيات الأخرى المستشهد بها ( الثانية ، والثالثة ، والرابعة ) - و بحسب ترتيبها أعلاه - وكما يأتي :

- الآية الثانية - ﴿ حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ ﴾ - تكونت من ( ٢٠ ) مقطعاً : منها ( ١١ ) مقطعاً قصيراً ، في مقابل ( ٩ ) مقاطع طويلة .
- الآية الثالثة - ﴿ حَتَّى إِذَا لَقِيَ غُلَامًا فَقَتَلَهُ ﴾ - تكونت من ( ١٩ ) مقطعاً : منها ( ١٠ ) مقاطع قصيرة ، في مقابل ( ٩ ) مقاطع طويلة .
- الآية الرابعة - ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَى أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ - تكونت من ( ٢١ ) مقطعاً : منها ( ١١ ) مقطعاً قصيراً ، في مقابل ( ١٠ ) مقاطع طويلة فحسب .

مما سبق يتضح أنّ المقاطع القصيرة - في النصوص الأربعة المتقدمة - صورت لقاء موسى (عليه السلام) بالعبد الصالح في مشهد متسارع ؛ طالما استغرب موسى (عليه السلام) من أحداثه إذ لم يدرك سرها ؛ فشكّلت له عنصر مفاجأة . فسرعة في طلب اللقاء : ﴿ لَا أَبْحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبُحْرَيْنِ ﴾ (٦٠) ، ﴿ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ (٦١) ، ﴿ فَارْتَدَّ عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ (٦٤) . وسرعة في أحداث اللقاء : ﴿ فَاذْهَبَا فِي السَّفِينَةِ ﴾ (٧١) ، ﴿ فَاذْهَبَا حَتَّى إِذَا لَقِيَ غُلَامًا ﴾ (٧٤) ، ﴿ فَاذْهَبَا حَتَّى إِذَا أَتَى أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ (٧٧) . وسرعة في الاعتراض أو السؤال : ﴿ أَخْرَقَهَا لِنُغْرَقِ أَهْلَهَا ﴾ (٧١) ، ﴿ أَقْتَلْتِ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ (٧٤) ، ﴿ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ (٧٧) . وسرعة في التخلي عن الصبر : ﴿ إِنْ سَأَلْتُكَ

عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبُنِي ﴿ (٧٦) .

ومن مجمل ما سبق يتضح جلياً أنّ التنوع بين المقاطع القصيرة والمتوسطة والطويلة - في كل ما سبق ذكره - له أثره البالغ على دلالة النص ، فطالما تتابع تشكل المقاطع الصوتية للتراكيب في أسلوب الحوار المتنوع في السورة بما ينسجم ودلالة السياق ؛ مشكلاً بذلك ظاهرة صوتية فريدة ؛ يعز نظيرها في غير القرآن .

### أصوات المد واللين :

المد بوصفه ملمحاً صوتياً - كغيره من الملامح الصوتية - لا يخلو من أسرار معنوية وتصويرية فنية في القرآن الكريم ؛ إذ يراعى في تلاوته طول المد ومدته بحسب المكون الصوتي أو ما يشكله التركيب ( التشكل الصوتي ) ، وأثر ذلك كله في المعنى ومساهمته في توصيله للسامع . ولأنّ أصوات المد تستغرق زمناً طويلاً في إخراجها ؛ فقد وظّف القرآن الكريم هذه الخصيصة الصوتية في المد في رسم أبعاد بعض قصص السورة ، ففي قوله تعالى : ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحِمَةٌ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) ﴾ اجتمعت أصوات المد ( الألف ، والواو ، والياء ) في سبعة مواضع : ( قالوا ، ربنا ، آتنا ، هيئ ، لنا ، أمرنا ، رشدا ) ، وناسب ذلك أنّ سياق الآية سياق دعاء ونداء ، والحاجة إلى مد الصوت وإطالته مما يقتضيه المعنى والمقام ، حتى استغني بالمد - لأجل هذه المناسبة - عن أداة النداء ، فالإكثار من حروف المد جعلها تتوء بالوظيفة التي تؤديها أداة النداء (المحذوفة) ، وتنوب عن قيمتها المعنوية بالضغط والمط والتطويل ولعل هذا يفسر كثرة اقتران حروف المد بأسلوب النداء ، إذ يحتاج النداء إلى مد الصوت لإبلاغ المراد ؛ تناسباً مع حال السامع و المتكلم .

ويظهر أثر المد وعلاقته بالزمن في قوله تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ (١٨) ، فصوت الواو في كلمة ( رقود ) مد عارض للسكون ؛ لسكون الواو عند الوقف عليه ، وهذا الصوت أعطى ملمحاً صوتياً يدل على الأمد الذي طال مكثهم فيه على حالهم تلك ، هذا بالإضافة إلى الشعور بطبيعة المكث وما فيه من تمكن وهدوء .

وينحوه تتابع الأصوات المدية في قوله تعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ (١١) ، فالمدة الزمنية التي استغرقها نوم الفتية بلغت مئات السنين ، وهذا المكث اقتضى إطالة أثر الفعل ( فضرنا ) ، ليتبع بعد ذلك بأربعة أصوات مدية ، فنتشكل عن ذلك انسجام بين الصوت والمعنى ؛ راسماً بذلك أبعاد الهيئة التي كان عليها الفتية .

وينحوه ما أوحى به الألف المدية في قوله تعالى : ﴿ مَا كُنْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ (٣) ، فمكوث أهل الجنة في الجنة مكوث سرمدى ، فناسب مد الصوت بذكر صفة المكوث فيها .

وربما دلّ تتابع الأصوات المدية على العمق ، فصوت الغين في ( غورا ) من قوله تعالى : ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غُورًا ﴾ (٤١) يدل على الاختفاء والغياب ، وقد جاء متلواً بالواو المدية التي أوحى بعمق غور الماء حتى يكون عسيراً على طالبه ، وهذا ما أراد العبد المؤمن لفت انتباه الكافر إليه ، بعد أن أيقن منه الكفر .

وربما دلّ تتابع الأصوات المدية على البعد ، فنتابع الألف المدية في قوله تعالى : ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبِرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ (٥) أعطت إحساساً بتأكيد المعنى في ( لا ، لآبائهم ) ليصل نفي العلم إلى كل أجدادهم الذين سبقوهم والذين كانوا على ملتهم في الكفر والضلال .

### الإدغام :

الإدغام - اصطلاحاً - : إدخال حرف في حرف آخر لتقارب صوتيهما مخرجاً أو صفةً أو كليهما . وأحكامه المتنوعة مما يراعى في قراءة القرآن الكريم وتلاوته ، فهو يشكل في جانب ظاهرة لغوية صرفية ، وفي جانب آخر ظاهرة صوتية ؛ ولكل منهما أثره الخاص والمشارك مع غيره من عناصر البناء الأدبي ، ويترتب على حدوثه نشاط واسع في حركة اللغة .

إنّ الإدغام عنصر من عناصر التشكل الصوتي للألفاظ ومرتكز من مرتكزات تفسيره ، فهو خير وسيلة للتخلص من صعوبة صوتية في التماثلات مخرجاً وصفةً ، وإحداث جمالية مرغوب فيها في سياق تلك التماثلات ، فمما يفيد الإدغام ( الناتج عن

(الزيادة) التكرير والمبالغة في نحو قوله سبحانه : ﴿ وَتَقَلَّبُهَا ذَاتُ الْيَمِينِ وَذَاتُ الشَّمَالِ ﴾ (١٨) فالتقليب عمل لم ينقطع طوال الفترة التي مكثها الفتية في الكهف رعاية من الله لهم .  
 وبنحوها الإدغام ( الناتج عن الزيادة ) في قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ يَقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أُفُقَ فِيهَا ﴾ (٤٢) في توصيل أبعاد الصورة النفسية ، فالتكرير والمبالغة فيها ناتج عن مضاعفة الأصوات المدغمة في : ( يُقَلِّبُ كَفَيْهِ ) . فلو كانت العبارة ( قَلَّبَ كَفَيْهِ ) ، فإنَّها ومن المؤكد لن تعطي الدلالة نفسها المراد توصيلها مع الهيئة والصورة الحاصلة .

### ثانياً : المستوى الصرفي

تعنى الدراسات الأسلوبية ضمن المستوى الصرفي بالمشتقات ( اسم ، فعل ، صفة الفاعل ، صفة المفعول ، صيغ المبالغة ، التفضيل ... ) دون سائر أنواع الكلم ، راصدة أثرها على دلالة النص وإيحاءاته ، فالوظائف الصرفية مطلب بلاغي آخر لا يقل أهمية عن الوظائف الصوتية - المفروغ منها ضمن المستوى الصوتي - كما سنرى من الأمثلة المستقرات من آي السورة .

#### أ- اسم الفاعل :

اسم الفاعل هو صفة الفاعل ( صفة القائم بالفعل ) ؛ لذا فهو يدل على الفعل وعلى من قام به ، وقد تكرر ذكر صيغته خمساً وثلاثين مرة في هذه السورة المباركة ، ولا شك إنَّ لهذا التكرار دلالة أسلوبية متميزة ، على أنَّ مجمل هذه الدلالات التي عبرت عنها صيغة أسم الفاعل ترجع إلى معنيين رئيسيين ؛ وذلك بالنظر إلى قرينه وبعده من الاسم أو الفعل ، فاسم الفاعل إذا عمل عمله اقترب في دلالته من الفعل والحدث ، وارتبط بالمستقبل أكثر من الاسمية ؛ فيدل على التغير والتجدد ، ويقترن بالتنوين به حينئذ ضمن غايات دلالية وجمالية وتصويرية ؛ يسهم التنوين في صياغتها وتشكيلها . أما إذا لم يعمل عمله فعله ( في حالة الإضافة ) لم يقترن به التنوين ، وسيقترن من الاسم دالاً

على الثبات واللزوم . إذن فاسم الفاعل أمام اختيار بين الاسمية والفعلية ، بين الدلالة على الثبات واللزوم ، أو الدلالة على التجدد والتحول .

ومن صور مجيئه مضافاً غير عامل ( دالاً على الثبات واللزوم ) قوله سبحانه : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تُخِذُ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ (٥١) ، فاسم الفاعل ( متخذ ) جاء مضافاً غير منون ؛ ليؤكد ثبات الحكم الإلهي القاطع بعدم اتخاذ المضلين عضداً ، فمن الثابت في العقيدة إنَّ الله غني عن العالمين .

كذلك فإنَّ حالة اليقين التي وصل إليها أهل النار إذ رأوها ؛ ﴿ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُهَا ﴾ (٥٣) دفعت أي شك لديهم في النجاة ، فجاء اسم الفاعل ( مواقع ) مضافاً لم تلحق به النون ؛ ليؤكد يقين الكافرين بدخولها والخلود فيها .

واسم الفاعل في الآيتين السابقتين كليهما لم يعمل عمل فعله ، بل جاء مضافاً إلى معموله ، مقترباً بذلك من معنى الاسم الدال على الثبات واللزوم . لكننا على الضد من ذلك نجد أنَّ اسم الفاعل ( باسط ) جاء منوناً عاملاً عمل فعله ( بسط ) في قوله تعالى : ﴿ وَكَلَبَهُمْ بِاسِطٍ ذِرَاعَيْهِ ﴾ (١٨) ؛ مقترباً بذلك من الفعلية الدالة على الحدوث والتغير ، وناسب ذلك تصوير هيئة الفتية وهم يتقلبون في الكهف على نحو مستمر ومعهم كلبهم ، فأسهمت صيغة اسم الفاعل العاملة تحريك الصورة في مستوى يقتضيه المقام .

ونحو ذلك اسم الفاعل ( جاعل ) العامل عمل فعله في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ (٨) يمثل عنصر حركة وتأثير ، فناسب استعماله تصوير حال الدنيا وهي تتقلب وتتغير من حال إلى حال ؛ لاقتربه من دلالة فعله ( جعل ) الدال على الحدوث والتجدد ؛ بعدئذ عمل عمله .

ونحو ذلك اسم الفاعل ( ظالم ) العامل عمل فعله في قوله سبحانه : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّةَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾ (٣٥) جاء حالاً منوناً ؛ ما أكسبه دلالة التغير والحدوث من جهتين : من جهة كونه حالاً ؛ فشرط الحال أن تكون متنقلة ( متغيرة ) ؛ والرجل كان ظالماً لنفسه في اللحظة التي كانت سبباً في وقوع العقوبة عليه ، لكن

حاله سرعان ما تغيرت إلى الندم - بعد تبدل حال جنتيه - : ﴿ وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ (٤٢) ؛ فارتدع وندم . ومن جهة كونه منوناً ، فدلالة التتوين هي الأخرى أوحث بتبدل حاله ، إذ لو كان اسم الفاعل مضافاً ما جاز تتوينه ، ولدل ذلك على أنه دام على عناده وكفره وثبت عليهما ؛ ولذا جاء اسم الفاعل منوناً عاملاً في كلمة ( نفس ) محققاً بذلك دقة في المعنى ، وانسجاماً كاملاً بين المقام والمقال .

وحتى ولو لم يعمل اسم الفاعل المنون بل جاء معمولاً ؛ فإنه يدل على التغير والتجدد - ودلالة التجدد لها علاقة بالاستقبال - سواء حُلِّي بالتتوين أو بالنون ، فاسم الفاعل ( خاوية ) في قوله تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ (٤٢) جاء منوناً ، وهو في جملة حالية ؛ والحال بطبيعتها منتقلة ؛ دالاً بذلك على التغير وعدم الثبات ؛ وناسب ذلك أنّ الجنة كانت مثمرة ؛ فتغير حالها من النضرة والعتاء إلى الدمار والخواء .

ونحو ذلك اسم الفاعل ( فاعلٌ ذلك ) في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴾ (٢٣) ؛ جاء منوناً ؛ ما جعل دلالاته تقترب من دلالة الفعل ( الحدوث والتجدد ) ، ولهذه الصياغة دلالة عميقة ، فاسم الفاعل المنون هنا يوحي بحصول الفعل في المستقبل ( تجدده ) من عبد لم يطلع على غيبه ، ولأجل ذلك نهى الله تعالى نبيه عن معاودة هذه الصيغة حتى يعلقها بفعل المشيئة .

مما سبق نجد أنّ صيغة اسم الفاعل تأتي إما عاملة منونة ، وإما غير عاملة ولا منونة ، وهي في كلتا حالتها قد أسهمت في رسم أبعاد الصورة البيانية لقصص السورة وإيحاءاتها المختلفة حركةً وثباتاً .

**ب - اسم التفضيل :**

اسم التفضيل صيغة مشتقة من فعل على وجه مخصوص ( أي لحدث موصوف قام به الفاعل أو وقع عليه ) لبيان الزيادة في صفة مشتركة بين طرفين على وجه الحقيقة أو التوهم ، ويشمل زيادة الفضل وزيادة النقصان .  
ومع أنّ القرآن الكريم ينوع في أساليب التعبير مخاطباً بذلك العقل والعاطفة ؛ فقد أكثر من استعمال صيغة التفضيل في هذه السورة المباركة ، وذلك لدواعٍ متعددة ، نذكر منها :

١ - الدعوة إلى الدين الجديد : فسورة الكهف من السور المكية ، وشهد نزول أيها مرحلة الدعوة الأولى ؛ وكان من الطبيعي جداً اعتماد أسلوب ( التفضيل ) للإقناع والتأثير وذلك بعقد مقارنة بين طرفين ؛ يتوقع العقل السليم اختيار الأفضل منهما ، وكان من البدهي جداً أن تكون المقارنة بين ما كان عليه أهل مكة من عبادة الأوثان وبين ما تدعوهم إليه العقيدة الجديدة ؛ ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) ﴾ ، ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ (٥٧) .

٢ - العلم والتعليم : الفكرة الرئيسية في قصص السورة الدعوة إلى وحدانية الله تعالى وكان لا بد من الدعوة إلى هذا المطلب المهم - الذي خلقت لأجله الدنيا - من الدعوة إلى تعلم التوحيد وتعليمه على هدىً وبصيرة ؛ ومن ثم استفتحت السورة بنعمة إنزال الكتاب على عبده تعليمياً له ؛ وتشريعاً لمقامه أمام من يدعون مع الله إلهاً آخر جهلاً ؛ وينسبون له الولد ظلاماً دون علم وبلا دليل ، ولا زالت السورة تؤكد هذه المعاني إذ تدعو إلى وحدانية الله العالم العليم بنحو قوله سبحانه : ﴿ رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ (٢١) ، وقوله : ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (٢٢) ، وقوله جلّ في علاه : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرُ بِهِ وَأَسْمَعُ ﴾ (٢٦) .

٣ - الهداية والرشاد : فالاستجابة لداعي الخير على علم وبصيرة لا شك يورث صاحبه الرفعة والعز في الدنيا والآخرة ؛ ﴿ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤) ﴾ ، فالهداية والرشاد من الله ، وهما خير لابن آدم من أن يوكل إلى نفسه فيهلك .

٤ - النصح والتذكير : لقد كشف اسم التفضيل جانباً من نفسية صاحب الجنتين : ﴿ قَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا ﴾ (٣٤) ، فيلاحظ تكرار صيغة اسم التفضيل ( أكثر ) و ( أعز ) مع تنوع تمييزيهما ( مالا ) و ( نفراً ) ، فقوله ينم عن نفس متعلقة بمتع الدنيا ، تريد أن تكثر من المتع والتمتع بها ؛ فأطال الكلام عنها . وفي الجانب الآخر جمع صاحبه المؤمن المتع باسم تفضيل واحد ولم يكرر : ﴿ إِنَّ تَرَنِّيًا أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ (٣٩) ، فهو لا يعد تلك المتع مجالاً للمفاضلة ، بل ينفي أن تكون متعاً حقيقة ؛ فاستبدل ذكر جنتيه بلفظ ( جنتك ) ؛ ﴿ وَوَلَّآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ ﴾ (٣٩) ، فالمؤمن ينظر إلى الدنيا بمنظار الحقيقة ، فالجنة إذا كانت في منظور صاحبها عظيم ( جنتين ) ؛ فهي في منظور المؤمن جنة واحدة ، وإذا كان لا بد من المفاضلة ؛ فمعود الله تعالى وجنته خير من جنتيه ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ ﴾ (٤٠) .

### ثالثاً : المستوى النحوي

لا يقصد من وضع قواعد النحو والتقدير بها حمل لغة النص على دلالات فنية أو جمالية ابتداءً ، لكننا مع ذلك لا نعدم مثل هذا الأثر في المستوى النحوي مع تحول اللغة إلى المستوى الأدبي ذي الطابع البلاغي ، ولا سيما مع نص يرقى إلى ذروة الإعجاز كلغة القرآن الكريم ؛ فعلاقة النحو باللغة - مع أدبية النص - لا تبقي في إطار شكلي وتنظيم خارجي فحسب ، كما لا تعود قواعد النحو معها مجرد أداة لضبط النص أو لتوصيل المعنى فحسب ؛ بقدر صيرورتها وسيلة تأثير وإثارة .

إذن فدراسة الجانب النحوي والتضام التركيبي في النص القرآني - أو أي نص بليغ ؛ وفقاً لهذا التصور - يراد منه الوصول إلى ما فيه من لطائف بيانية . ولعلنا نجمل

القول - في أدناه - بأهم اللمسات البيانية للألفاظ التي يمكن الوقوف عليها في هذا المستوى بحسب تصنيفها في أقسام الكلام العربي ، وكما يأتي :

١ - الضمائر : ومما انمازت به الضمائر في هذه السورة المباركة :

أ - كثرتها مع تغاير عوائدها : إن كثرة الضمائر في النص يعد شكلاً من أشكال التماسك النحوي ، وملحظاً دالاً على عمق التركيب ؛ لمحافظة على الترابط الداخلي للنص ، كما يمكنها على الضد أن تحول دون فهمه ؛ فيميل إلى الغموض والتعقيد ، أو يقصر في إبلاغ المراد . ومن الأمثلة الدالة على كثرتها ما نلحظه في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيُعْلَمُوا أَن وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (٢١) ﴾ . فالآية الكريمة اشتملت على ثلاثة عشر ضميراً ، منها ما عاد على الفتية ( أصحاب الكهف ) ، ومنها ما عاد على القوم الذين شهدوا انبعاث الفتية .

من جانب آخر فإن تنوع الضمائر في النص مع كثرتها يحقق التفاتة خطيرة يمكنها أن ترفع من مستواه الفني الأدبي ؛ وذلك لمحافظة على النسق المعبر الذي لا يدرك إلا بالتأمل ؛ فالضمائر إلى جانب تحقيقها وظيفة الترابط الداخلي ؛ فإنها تبعث المتلقي للبحث والمتابعة المتأملة الفاحصة عن الجهة التي تحيل إليها ؛ لإدراك أسرار النص والوصول إلى حكمته ، فهي تسحب القارئ إلى ساحة التأمل ، والتأمل مطلب أساس في النص الأدبي والبحث الأسلوبي ؛ لتأثيره البالغ على العقل والعاطفة ؛ ولا سيما مع تنوع الضمائر ، إذن فتتوعد الضمائر مع كثرتها يعني تنوع العوائد وتعددتها ؛ كما يعني سرحان العقل في باحة واسعة من التأمل .

ب - تنوعها مع توحيد عوائدها : إن اتحاد الضمائر في جهة الإحالة مع اختلاف صورها يفضي بالنص إلى فنية التأمل مرة أخرى ؛ ولكن بشكل أعمق وبطريقة جديدة هي طريقة

الالتفات ؛ وذلك بكسر السياق بعنصر مفاجئ ( صيغة غير متوقعة ) يتعمدها المتكلم ليتحول بالسامع معها ( لافتاً وملفتاً ) من الحضور - مثلاً - إلى الغيبة ، أو من الأفراد أو التثنية إلى الجمع ؛ أو بالعكس . وعلى ذلك جاء قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) ﴾ .

؛ فمع تكرر ظهور ضمير الجمع - من بين ضمائر الآية العشرين ضميراً - وبشكل لافت خمس عشرة مرة ؛ إلا أنها اختلفت بين صيغتي الغيبة والحضور ، مع أنها جميعاً تحيل إلى عائد بعينه ( الفتية ) ، وهذا من شأنه أن ينوع في الأسلوب ؛ ثم في طبيعة الصورة المنقولة عن الحدث ؛ فالضمائر شكّلت عنصر الالتفات من الغيبة في ( بعثناهم ) ، إلى الحضور في ( لبثتم ) . وتستمر الآيات التي تكمل بقية الحدث على الوتيرة نفسها في التناوب بين الحضور والغيبة إلى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ (٢١) . إذن فتعدد الضمائر وتغاير صورها حضوراً وغيبة في نسق منسجم من شأنه حمل السامع على الالتفات في جنبات الصورة التي يرسمها النص بمزيد من التأمل .

ج - توحيدها مع تعدد عوائدها : لا بد لفهم النص من تعيين عود الضمير بشكل دقيق . و يتواءم مع دقة انصباب الضمائر على عائد بعينه فكرة العوائد المحتملة وانصراف الضمير إليها بشرط عدم تعارضها ؛ فضمير الجمع في قوله تعالى : ﴿ عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا ﴾ (٢١) - في الآية الأنفة الذكر - يختلفان في احتمالية عودهما ، ف (هم) محدد الدلالة ؛ لأنّه لا يحتمل غير الفتية . أما الآخر ( الواو في (ليعلموا) ) فدلالته تحتمل أكثر من عائد ، فمن الممكن رجوعه على الفتية ، ويمكن أن يرجع على أهل المدينة ، كما ويمكن أن يرجع على كل من بلغه خبر الفتية حتى زماننا هذا ، فقضية البعث والنشور لا

تخص إنساناً دون إنسانٍ ولا عصرًا دون عصر ( عائد دون عائد ) ؛ فالحكمة من إيراد قصة الفتية وبعثهم للاعتبار بها . ووفقاً لهذا التصور أكسب الضمير ( ذو العائد المحتمل ) النص خصوصية في اللفظ وعمومية في الدلالة ، وما ذاك إلا للتأكيد على معنى آخر أكثر عمقاً طالما أكدت السورة عليه ؛ وهو قضية البعث والنشور ، وبهذا تتوافق لغة النص مع بعد المعنى وعمقه .

ونحو ما سبق من تعدد الضمائر والاتساع في دلالتها (احتمال عودها على أكثر من عائد) ما جاء في قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) ﴾ فالضمير المستتر في قوله : ( لينذر ) ، يمكن أن يعود على ( الكتاب ) ، ويمكن أن يعود على ( عبده ) ، وهذا الاتساع في التركيب نابع من كون الرسالة التي يحملها الرسول (ﷺ) واحدة ؛ هي الكتاب الكريم نفسه ، أو هي التي تضمنها الكتاب الكريم ، ولتوحد الكتاب والرسالة ووجوب الإيمان بهما ؛ فلا فرق في عود الضمير على أيهما .

## ٢ - الحروف : ومما إنماز به الحروف في هذه السورة المباركة :

أ - استبدال بعضها ببعض : تبدل الحروف بعضها من بعض لعلة بلاغية بيانية لا يمكن تحصيلها مع استعمال الحرف المعتاد للمعنى المنشود ؛ فيعدل بالحرف عن رديفه لأجل هذه العلة ، فمن ذلك ما جاء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) ﴾ ، إذ عدل عن استعمال حرف النفي (ما) الأكثر شيوعاً في الاستعمال في مثل هذا النسق من التعبير إلى استعمال (إن) لتفيد النفي من جانب ، وتضفي ظلالاً من التأكيد والحصص لبيان كذب المدعين على الله من جانب آخر ، وهذا الأخير ( معنى التأكيد ) معنى ليس في (ما) ؛ فعدل عنها إلى (إن) التماساً لهذه الدلالة .

ب - زيادتها : ثمة علاقة أكيدة بين مبحث الزيادة ودلالة التوكيد ولا سيما في باب الحروف ، ولعل هذا واقع في قوله سبحانه : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسَّتْ مُرْتَقًا (٣١) ﴾ ، فقوله : ( يحلون فيها من أساور من ذهب ) أبلغ وأوكد مما لو جاءت العبارة على باب الإضافة ؛ فقليل : ( يحلون أساور ذهب ) .

### ٣ - الأفعال : ومما إنماز به الأفعال في هذه السورة المباركة :

أ - تتابعها وتنوعها : ففي قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشْرَنَاهُمْ فَلَمْ نَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) ﴾ تتابعت الأفعال المصورة لمشهد القيامة وتنوعت بين المضارع والماضي ؛ ما يدفع المستمع إلى التركيز والتأمل ، فهذه الالتفاتة اللطيفة من المضارع الحاضر إلى الماضي المنصرم أدخلت السامع في جو من الرهبة والشعور بأنه مخلوق ضعيف مسيطر عليه .

ويتكرر تتابع الأفعال في مشهد الحساب في قوله تعالى : ﴿ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فِتْرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهذا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) ﴾ في نظام تبادلي يشعر الإنسان بحقيقة ما سيكون يوم القيامة من وضع الكتاب ، وإحصاء الأعمال ... : (( وضع ) ماض / ( فترى ) حاضر / ( مشفقين ) ثابت / ( ويقولون ) متغير / ( لا يغادر ) حاضر / ( أحصاها ) ماض ثابت / ( وجدوا ، وعملوا ) ماض منقطع / ( لا يظلم ) حاضر متصل )) ، وإنَّ

توزيع الأفعال بين دلالة الماضي واتصال الحاضر على هذا النسق يزيد من تلفت المستمع بعد أن تيقن من وقوعها .

ب - تنازعها مع تعددها : وهو شكل من أشكال التركيب النحوي المتسم بالتداخل الناتج عن شدة الترابط الجملي ؛ إذ يتنازع فعلاّن على مفعول واحد ؛ وذلك واقع في قوله سبحانه : ﴿ قَالَ أَتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) ﴾ ، وجماليات هذا الأسلوب في جانبين : أحدهما ؛ الاقتصاد اللغوي والإيجاز ، فبدلاً من تكرار لفظ ( قطراً ) والقول : ( أتوني قطراً أفرغ عليه قطراً ) اختصار أحد المفعولين وتوجيه الفعل الآخر إليه ، وذلك أجمل في التعبير إلى النفس .

والآخر ؛ الدقة في التعبير عما يشعر به المتكلم من حاجة ماسة إلى المفعول به والتلازم بين الفعلين ليتحقق عنصر القوة في بناء السد .

مما سبق نجد أنّ تراكيب السورة والتضام النحوي المتشكل من تعدد الضمائر ، واتساع في الحروف ، وتنوع في الأفعال قد أضفى على أسلوب السورة عمقاً في الدلالة وقوة في التركيب .

### رابعاً : المستوى الدلالي

إنّ البحث في دلالة النص لا يقف عند البحث في معاني مفرداته ، فكما أنّ الجانب المادي من النص يستمد قوامه من أصوات النص وأوزانه وتراكيبه ؛ فكذلك الجانب المعنوي منه يستمد قوامه إجمالاً من ثلاثة موارد ؛ تنقسم دلالة النص بموجبه على ثلاثة أقسام : ( معجمية ، مجازية ، وظيفية ) . أما الدلالة الوظيفية ؛ فهي الدلالة المتولدة عن وظائف الألفاظ نحويّاً وصرفيّاً وحتى صوتيّاً ؛ فالأطر الصوتية بمجملها (الأصوات ، الأوزان ، التراكيب) تمد النص اللغوي - كما رأينا ضمن المستويات الثلاثة -

بحشد من الدلالات الوظيفية ( معنى الفاعلية ، والمفعولية ، والنسبة ، وغيرها.. ) وقد تضافرت مع دلالات النص الأخرى - كما رأينا - عاكسة صوراً وإيحاءات مختلفة .

أما الدلالة المعجمية ، فهي الدلالة التي يوضع عليها اللفظ ابتداءً في أصل اللغة ومن ثم فهي أول دلالة وأقدم دلالة يحملها اللفظ ؛ قبل أن يتحول عنها إلى دلالات أخرى بفعل الاستعمال (المجاز) ، لذلك تسمى: (الدلالة الحقيقية أو المركزية) . خذ على سبيل المثال لفظة ( يد ) تدل - في أصل وضعها - على معنى : العضو أو الجارحة .

غير أنّ اللغة تحفظ لهذه اللفظة ( اليد ) معانٍ أخر ؛ تحت مسمى : ( الدلالات المجازية أو الهامشية ) اكتسبتها بفعل السياق ، فلها في كل سياق ( تركيب ) ترد فيه معنى غير معناها المعروف ؛ فإذا كانت ( يد الإنسان ) : عضوه وجارحته ، ف( يد الفأس ) : مقبضها ، و( يد الريح ) : قوتها ، و( يد الطائر ) : جناحه ، و( بين يدي الساعة ) : أمامها ، و( بايعته يداً بيد ) : نقداً ، و( أسقط في يده ) : ندم ، و( يعطوا الجزية عن يد ) : عن ذل ... . وسنجد مثال ذلك في سورة الكهف قد وقع لألفاظ كثيرة لاختلاف الأسيقة التي وردت فيها . فهذه وأمثالها ( المقبض ، القوة ، الجناح ، النقد ، الندم ... ) تسمى بالدلالات المجازية أو الهامشية للفظة (اليد ) ؛ وإلا فدلالاتها الحقيقية معروفة عند أهل اللغة ؛ وهي جارحة الإنسان وعضوه .

إنّ أهمية الدالتين المعجمية والمجازية - فضلاً عن الوظيفية - في تحليل النصوص لا تقف عند حد إحصائها فحسب ؛ إنّما برصد ما ينشأ عنها من ظواهر لغوية كالترادف ، والاشتراك ، والتضاد اللغوي ؛ زيادة على ما تعكسه من إيحاءات ، وها نحن بصدد الوقوف على أمثلة كل ظاهرة منها في هذه السورة المباركة .

#### أ - المشترك اللفظي :

المراد بالمشترك اللفظي وجود كلمتين تشتركان في اللفظ وتختلفان في المعنى ، ف( يد الإنسان ) غير ( يد الريح ) ؛ الأولى تعني : عضو الإنسان وجارحته ، والأخرى تعني : قوة الريح وسلطانها ، وهكذا . وإنك لتجد مثال ذلك قد وقع لكثير من الألفاظ في سورة الكهف ، فمن ذلك :

- ١ - لفظة ( الكتاب ) ، ففي قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) ﴾ ، تعني : ( كلام الله ) المنزل على نبيه الكريم محمد ( صلى الله عليه وسلم ) ، لكنها في قوله تعالى : ﴿ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ (٤٩) تعني : ( سجل أعمال العباد ) .
- ٢ - لفظة ( الرجم ) ، ففي قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴾ (٢٠) تعني : ( القتل بالحجارة ) وهو من أحيث القتل ، كان يعاقب به من خالف دينه أو خرج عليه ، لكنها في قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ خُمُسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ (٢٢) تعني : ( الظن والتهمة ) .
- ٣ - لفظة ( الظهور ) ، ففي قوله تعالى : ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) ﴾ تعني : ( الارتفاع والعلو ) ، لكنها في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ (٢٠) تعني : ( الظفر والغلبة ) ، فقولهم : ظهر عليه ؛ يعني : غلبه .
- ٤ - لفظة ( السبب ) ، ف(السبب) الأولى في قوله تعالى : ﴿ وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَاتَّبَعَ سَبَبًا (٨٥) ﴾ تعني : ( الوسيلة ) الموصلة إلى الغاية ؛ وهذه تشمل كل الأمور المادية والمعنوية التي رزقها ذو القرنين من قوة وعقل وعلم ونحوها ، أما الثانية فتعني : ( الطريق ) ، يعني سلك طريقاً موصلاً لغايته ، وسيتكرر هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا ﴾ (٨٩ - ٩٠) ، ﴿ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا ﴾ (٩٢ - ٩٣) .

#### ب - الترادف :

وعلى خلاف المشترك اللفظي ؛ فالترادف يعني وجود كلمتين تختلفان في اللفظ وتتشركان في المعنى ، ف ( يد الإنسان ) و ( يد الريح ) إذا اشتركتا في اللفظ واختلفتا في المعنى ، فإن ( يد الريح ) و ( قوة الريح ) تختلفان في اللفظ ؛ لكنهما تشتركان في

المعنى نفسه ( الدلالة على معنى القوة ) ، وأمثلة ذلك في سورة الكهف عديدة ، فمن ذلك :

١ - لفظتا ( سداً ) و ( ردماً ) ، فقد وردا في سياق حوار واحد بين ذي القرنين والقوم الذين طلبوا منه أن يكفيهم شر يأجوج ومأجوج ، وهما مع اختلاف لفظيهما إلا أنهما جاءا لمسمى واحد ؛ وهو ( الجدار المانع لما يليه ) ، قال تعالى : ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) ﴾ .

٢ - لفظتا ( القرية ) و ( المدينة ) ، فالقرآن الكريم يخبرنا من قصة موسى (عليه السلام) مع الخضر (عليه السلام) أن الجدار الذي بناه الخضر كان في القرية ، قال تعالى : ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا آتَيْنَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمُوا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) ﴾ ، لكن الخضر (عليه السلام) حين أوضح لموسى (عليه السلام) قصة هذا الجدار ذكر أنه في المدينة ، فقال : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ (٨٢) ، ولا عجب فالقرآن الكريم يبذل هذين اللفظين أحدهما من الآخر لأنهما يترادفان على مسمى واحد ، وهذا واقع في سورة يس ؛ إذ قال جل شأنه : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) ﴾ (يس ١٣) ، ثم قال : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) ﴾ (يس ٢٠) .

٣ - ومما اختلف لفظه واتحد معناه : ( الرشد ) و ( الرفق ) ، ففي قوله تعالى : ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) ﴾ سأل الفتيمة ربهم ( الرشد ) ؛ فأجابهم (ب) ( الرفق ) ؛ فقال عز من قال : ﴿ فَأَوْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا (١٦) ﴾ .

## التصوير الفني في السورة :

لعله من اللائق في هذا المقام - بعد الإلماح بالدلالة المجازية ضمن الدلالات الهامشية التي يكتسبها اللفظ عند الاستعمال - أن نعرض بعض مواضع التشبيه في السورة ؛ بوصفه صنو المجاز ورديفه ضمن المستوى الدلالي البلاغي لتراكيب السورة . فالتشبيه أسلوب من أساليب البيان ، وهو أقرب وسيلة للإيضاح والإبانة ، وأنجع وسيلة لتقريب البعيد من المعاني ، ففيه من الجدة والطرافة وبعد المرمى بحيث ينتقل بالسامع من شيء معهود مألوف إلى شيء يشابهه أو صورة بارعة تماثله ، ويزيد التشبيه من جمال الأسلوب وإثارة اللذة والتشويق في النفس ، زد على ذلك القدرة على جمع الأضداد وهذا باب من اللطف والحسن ، تكون النفس به متعلقة متأثرة ، فترى شيئين مؤتلفين متفقين مختلفين في آن واحد . يظهر به براعة التشبيه ونشاطه الجمالي في التصوير .

واعتمد القرآن الكريم التشبيه والتمثيل أسلوباً في مخاطبة الناس ؛ يصدّق ذلك قوله تعالى - من سورة الإسراء - : ﴿ وَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (١٨٩) ﴾ ، ثم أكد هذا الأمر في السورة التي تليها ( أعني سورة الكهف ) ؛ إذ قال جلّ شأنه : ﴿ وَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدًّا (٥٤) ﴾ ، فالتشبيه يعني : التمثيل ؛ فهو مأخوذ من قولك : شابه زيدٌ عمراً ؛ أي ماثله في الصورة ، فالمشابهة تعني المماثلة ، ومن ثم ينظر للتشبيه على أنه صورة تجمع بين أشياء متماثلة ، فإذا مثلت الشيء بالشيء فإنما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه ، وذلك أوكد في الترغيب فيه أو التفتير منه ، ويزيد من جمال التشبيه طرافته وبعد مرماه ؛ في كونه ينتقل بالسامع من شيء مألوف إلى شيء طريف يشابهه أو صورة بارعة تماثله ، وكلما كان هذا الانتقال بعيد المنال قليل الخطور بالبال ؛ كان التشبيه أروع وأدعى إلى إعجاب النفس به .

والصورة الفنية التي يرسمها التشبيه متعددة الأشكال والمصادر ما بين المجاز والكناية ، ويجمع ذلك كله الخيال الذي يعد المرجع الأساس والخلق في الصورة الفنية . إنَّ الصورة في التشبيه قد لا تخلق معنىً جديداً ، وليس القصد منها ذلك ؛ فالصورة

لن تغير من طبيعة المعنى في ذاته ، إنَّها لا تغير إلا من طريقة عرضه وكيفية تقديمه فهي وسيلة خاصة في التعبير ، تمتاز بتحقيق الإثارة لدى المتلقي ، إلى جانب المتعة والدهشة ، زد أنَّها تفسح المجال للتخيل والخروج عن المألوف ، فتترك في نفس المتلقي إثارة خاصة بطريقة لا يمكن للغة العادية أن تؤديها .

ولعلم الله تعالى بطبيعة خلقه خاطبهم بالتعبير الأنسب والتصوير الأقرب ؛ الذي تتأثر به العقول وتثار لصوره النفوس ؛ فتصل رسالته إلى أي إنسان مهما بلغ وعيه وتفكيره ، فمن ذلك تصويره سبحانه قصة الفناء ؛ فناء الدنيا والانتقال إلى الآخرة في صور دقيقة كأنَّها شاخصة لناظرها ، ولم يعرضها على أنَّها فكرة مجردة ؛ وناسب أن يعقد بينها وبين الغيث النازل شبيهاً ، ويضرب بصورتها مثلاً لنظلم ماثلة في الأذهان لعظيم خطرها ؛ فقال جلَّ شأنه : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) ﴾ ، وهذا التشبيه يسمى : ( تشبيه المركب بالمفرد ) ، فالمشبه مركب من جملة من الصور والأحداث المتتابعة ( ماء نازل ، أرض تنبت ، ريح تعصف ) ، بينما تشكل المشبه به من صورة واحدة مفردة وهي ( الحياة الدنيا ) ، وهي صورة تبدو لمتأملها قد أخذت تتسع أبوابها شيئاً فشيئاً ، فهي تشبه (الحياة الدنيا) الأمل الوحيد لإنسان كافرٍ يجهل أو يتجاهل أن بعد الحياة الدنيا حياة أخرى ، ولا يريد أن يصدق ذلك ؛ لتعلقه بالدنيا وحرصه عليها ، ولكنه في هذه الصورة يراها وكأنَّه لا عهد له بها ، فجاء ذكرها مجرداً مفرداً تمهيداً لازدريائها وتحقيرها ، بينما يورد في جهة المشبه به تفاصيل وأحوالاً يصير المشبه بها مركباً .

وتظهر براعة هذا التصوير في هذا المثل فيما يأتي :

أ - عرض صورة المشبه ( الدنيا ) دون الخوض بجزئياتها وتفصيلاتها أو ما يتعلق بها من متع ؛ فنذكر هذه التفصيلات قد يلفت انتباه المدعويين لتركيها ؛ فيزيد من تعلقهم بها ، وهذا خلاف الغاية المنشودة من الصورة في هذا المقام .

ب - عرض صورة المشبه به ( الصورة المركبة من الماء النازل والزرع النابت .. ) وقد برز فيها شيئان : أحدهما ؛ اختصار مرحلة هامة من حياة النبات ؛ وهي مرحلة إنتاج

الثمر ، فالنبات المشبه به لم يثمر في هذا المشهد ، ذلك أنّ الثمر فيه متعة ؛ والآية اعتمدت أسلوب نزع المتع من هذا المقام ؛ ليكون أكثر تأثيراً في توجيه المخاطب صوب الغاية ؛ وهي العمل من أجل الآخرة .

والآخر ؛ إبراز جانب السرعة في وقوع أحداث الصورة ، فالعرض إذا كان سريعاً شعر المتلقي بالخوف والندم ، بينما إذا تباطأ أعطى مجالاً للمخاطب بالتفكير والتأمل . وهكذا بدأت الحركة في مشهد الآية حتى أخذت بالتسارع ثم بالتحول ، بدأت الصورة فيها ببطء : ﴿ كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ (٤٥) مما ترك للعين المشاهدة مدة كافية للتأمل ، وللنفس المخاطبة مدة كافية للتأثر ، ثم ما لبث أن انتقل التصوير مسرعاً ومهيئاً للنتيجة ﴿ فَخَطَّطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾ (٤٥) ، فمع الفاء التي تقيد الترتيب والتعقيب بدأ التسارع تحقيقاً لعنصر المفاجأة في هذه الصورة ؛ مع اختزال للزمن وتغيب للحدث ، وفي هذه السرعة تحصل الهزة النفسية المقلقة التي تشعر بالحسرة وتدخل السامع في جو من الرعب والرهبة .

ج - وجه الشبه بين الصورة المركبة ( من نزول الماء من السماء ، وخروج النبات من الأرض ، ثم تهشمه وتحطمه .. ) بحال الدنيا المنقضية هو شدة تسارع انقضائهما ، وناسب ذلك خلق جو من التسارع في مشهد الصورة : فسرعة في نزول المطر ؛ إذ توحى حركة الماء النازل بذلك ، وسرعة في اختلاط ذلك الماء بالأرض - كسرعة اختلاط الإنسان بعد ولادته بمعترك الحياة - نزولاً وسقياً وإنباتاً . ثم سرعة في هيجان النبات وصيرورته حطاماً تلعب به الريح . ثم سرعة في انقطاع الأمل فيه مع تسارع الرياح التي تذرّوه .

د - اختار لحركة المشهد المتسارعة عناصر لغوية متعددة زادت من فاعليتها ، فالصورة وإن قامت بالدرجة الأساس على التشبيه ؛ إلا أنّها اعتمدت كذلك على انتقاء الصوت المؤثر واللفظ المعبر ، ثم توزيعها على جوانب المشهد بطريقة مؤثرة . أما جانب الصورة - أعني طرفي التشبيه - فيحتفظان بلمح غاية في الدقة وغاية في الروعة ، فالصورة تخفي خلفها صورة أخرى ؛ ذلك أنّه لم يشبه ( عمر الدنيا ) بسرعة نزول المطر ، وإنما شبه ( عمر الإنسان فيها ) بسرعة ذلك المشهد ، فليس للإنسان من الدنيا إلا عمره فيها .

كما أنه لم يشبه عمر الإنسان في الدنيا بالأشجار المعمرة التي تعيش طويلاً ، وإنما شبهه بالعشب الموسمي الذي لا يعيش إلا لشهور وربما لأيام معدودة فحسب .

وفي مركز الصورة يشكل ( فأصبح هشيماً ) عنصر المفاجأة ؛ إذ تنقلب الصورة في حركة مفاجئة قبل أن يثمر النبات وينتفع به الناس ؛ بل وينقطع الأمل حتى في الانتفاع بهشيم ذلك الزرع لاستمرار الريح بتفريق حطامه ، فكانَ للأصوات في (هشيمًا) التي تشكلت منها بؤرة الصورة حضور وأثر بارزان ، فخفة الهاء يتبعه التشتت في الشين مع حركة المد للياء أسدلت ظللاً على الصورة قد تعاضد فيها الصوت مع الزمن والحركة ، فنقلت السامع من حالة نفسية إلى أخرى مقصودة ، كما نقلت الريح حطام الهشيم من أرض إلى أرض ( تفشي الشين : تفشي الريح / سرعة الريح : سرعة العمر ) : ( صوت / صورة ) فهو بين أن تذهب به الريح إلى حالة تعلقت بها نفسه ( الدنيا الزائلة ) ، وبين أن تأخذ الآية الكريمة بيده إلى العمل من أجل الآخرة الدائمة والانصراف عن المنقطع .

والآية تدعوه ب( تذروه ) الفعل المضارع الدال على الحدوث والتغير والاستمرار ، فحالة تسارع الأعمار والآجال إن كانت للنبات أو للإنسان مستمرة لا تنقطع باستمرار ( تذروه ) ، والخوف من عدم الانتفاع بها احتمال واقع ما عصفت ﴿ تَذْرُوهُ الرِّيحُ ﴾ بأيام العمر .

مما سبق نجد أنّ الصورة الفنية شكل مميز من أشكال التعبير الأدبي للكشف عن المعنى بطريقة إيحائية مخصبة ، وأنّ سورة الكهف كغيرها من سور القرآن الكريم اعتمدت التصوير بأنواعه المختلفة ومصادره المتعددة ، فالتشبيه في لغة القرآن الكريم يعد عنصراً بيانياً يكسب النص دقة في التصوير ؛ ما يجعل المعنى القرآني متكاملًا من جميع الوجوه ، ولم تكن أمثله وتشبيهاته لتخلو من لمسات إيحائية وجمالية مؤثرة .